

المنهج الفلسفي في تفاسير الصوفية « التفسير المديد لابن عجيبة أنموذجاً ».

أجدير نصر الدين / جامعة تلمسان

ديباجة:

إن قوانين المعارف الاسلامية الاعتقادية أو العملية لا تعدو ان تكون منبثقة من أصول آيات القرآن الكريم فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لذا حظي بالتفاف أعلام الأمة الاسلامية حوله لفهم نصوصه المطهرة والعمل بما تتضمنه من أحكام عديدة فيها صلاح الحال والمآل لهذه الأمة الكبيرة .

وعليه نشأت مدارس متباينة في نظرتها لتفسير القرآن الكريم تنقسم بحسب الجواز العقلي إلى: الباطنية: ومآل النظر فيها إلى الكفر والعباذ بالله، فعند إطلاقها يراد بها تلك الطائفة من الشيعة التي أولت ظواهر النصوص إلى معان لا يدركها إلا الإمام المعصوم على زعمهم، وهي مدرسة الظاهرية القائمة على التعويل على ظواهر النصوص، أما المدرسة الاشارية أو الصوفية تعمل منهج ايراد ما ظهر وتجلي ما غمض وفق معايير وضوابط ولا تجزم بترقيها ان تكون مقصودة للشارع الحكيم، فنجد الطوسي أبو نصر السراج¹ يقول: « إن العلم ظاهر وباطن .. ولا يستغني الظاهر عن الباطن ، ولا الباطن عن الظاهر ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ لعلمة الذين يستنبطونه منهم ﴾ [النساء:83] فالمستنبط هو العلم الباطن ، وهو علم أهل التصوف ، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك ... فالعلم ظاهر وباطن ، والقرآن ظاهر وباطن ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر وباطن ، والإسلام ظاهر وباطن»².

والجدير بالذكر أن الاشارات هي أحوال عارفين انقدحت في أذهانهم هذه التفسيرات والتي تسعى إلى تزكية الروح وتنقيتها من الأدراة والأغيار، والفناء عما سوى الله عز وجل، وهو قمة الامتثال لله

1 - أبو نصر السراج: الزاهد شيخ الصوفية وصاحب كتاب اللمع في التصوف روى عن جعفر الخليلي وأبي بكر محمد بن داود الدقي قال الذهبي كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلم الشريعة وقال السخاوي: كان على طريقة السنة قال خرجت مع أبي عبد الله الروباري لنلقى أنبلياً الراهب بصور فتقدمنا إلى ديرهم وقلنا له ما الذي حبسك ههنا قال أسررتي حلاوة قول الناس لي يا راهب انتهى وتوفي في رجب، ينظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج 3، ص 91، الزركلي، الأعلام، ج 4، ص 104.

2 - الطوسي السراج، اللمع، تج: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م، ص 43، 44.

تعالى والتجلبب بجلباب العبودية لله رب العالمين وهذا ما أثنى عليه الشاطبي: خيرا أما الإخلاص، فلأن المكلف- إذا لبي الأمر والنهي في السبب من غير نظر إلى ما سوى الأمر والنهي- خارج عن حظوظه، قائم بحقوق ربه، واقف موقف العبودية بخلاف ما إذا التفت إلى المسبب وراعه، فإنه عند الالتفات إليه متوجه شطره، فصار توجهه إلى ربه بالسبب، بواسطة التوجه إلى المسبب، ولا شك في تفاوت ما بين الرتبين في الإخلاص¹.

المطلب الأول: تعريف التصوف :

لقد حفلت كتب المتصوفة بالعديد من الأقوال التي توضح معنى التصوف ، وعلاقته بتزكية الأخلاق وتطهير النفوس والاهتمام بتزكية الظاهر والباطن .

وقد وضع ذلك الشيخ عبد القادر عيسى في كتابه حقائق عن التصوف قائلا «التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس ، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية²».

فمن خلال هذا التعريف يتبين بأن التصوف له ارتباط وثيق بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق. كما ان المتصوفة يستعملون بعض المصطلحات للتعبير عن طريقتهم في تهذيب السلوك فيستعملون المصطلحات منها البسيط والمتقابل والعرفاني الخاص³.

والصوفية يربطون بين منهجهم في التصوف وبين هذه المصطلحات ، ويركزون على ربط العلاقة المتينة مع الله تعالى على الدوام وهو ما يسمى الأبدية تعني عند الصوفية الانقطاع لله تعالى و الاسترسال مع الله في جميع الأوقات أي على الدوام⁴، وهناك من اعتبر أن التصوف هو بقصد إصلاح القلوب فهو يركز على الباطن كما وضع ذلك احد شيوخ المتصوفة، وقد اعتبره ضروريا للقلب كما يعتبر الطب ضروريا للجسم والنحو ضروريا للسان ،حيث يقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله⁵ :«التصوف علم قصد لإصلاح القلوب ، وإفرادها لله تعالى عما سواه ، والفقه لإصلاح العمل ، وحفظ النظام ، وظهور الحكمة بالأحكام ، وتحلية الإيمان بالإيقان ، كالطب لحفظ الأبدان ، وكالنحو لإصلاح اللسان⁶». وقد

1- الشاطبي، الموافقات، تج: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن عفان ط1(1417هـ/1997م) ج1، ص347.

2- الشيخ عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف دار المقطم طبعة 2005 ، ص08 .

3. محمد بن بريكة، موسوعة الطرق الصوفية الإيضاح والبيان لمصطلح أهل العرفان، المعجم الصغير دار الحكمة الجزائر 2007 الجزء الأول ص 92 .

4. حسن الشرقاوي معجم الفاظ الصوفية مؤسسة مختار للنشر و التوزيع القاهرة الطبعة الأولى 1987 ص21 .

5- هو أبو العباس أحمد زروق الفاسي ، ولد بفاس سنة 846هـ ، وتوفي سنة 899هـ بطرابلس الغرب، ينظر كتاب حقائق عن التصوف ص8.

6. أحمد بن أحمد البرنسي المغربي المشهور بزروق ، قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة و الحقيقة ويصل

وضحه كذلك أحد أقطاب الصوفية بأن التصوف هو الأخلاق الحسنة وترك الأخلاق السيئة ، وهناك من شبه التصوف بالأرض حيث يطرح عليها القبيح وهي تعطي النافع للناس

قال الإمام الجنيد رحمه الله¹ : « التصوف ، تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الخلاق الطبيعية»²

وقال أيضا : «الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا المليح»³

فقال بعضهم : «التصوف كله أخلاق، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف»⁴ كما يعتبر التصوف كذلك هو التزام السلوك الحسن وحسن التصرف مع الله تعالى ، والإهتمام بتزكية القلب من الرذائل وتحليلته بأنواع الفضائل ، ويبدأ بالعلم وينتهي بالعمل كما يوضح ذلك ابن عجيبة في كتابه معراج التشوف إلى حقائق التصوف.

وقال ابن عجيبة : « التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، وتصفية البواطن من الرذائل ، وتحليلتها بأنواع الفضائل ، وأوله علم ووسطه عمل ، وآخره موهبة »⁵.

المطلب الثاني: الخطاب الفلسفي في تفسير ابن عجيبة.

التعريف بالمؤلف :

ولد الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني الأنجري التطواني عام 1161هـ الموافق 1748م بقرية في قبيلة الحوز بإقليم تطوان، تُعرَف باسم «عجيبش».

أخذ علومه الأولية بقريته المذكورة، ثم بدأ حياة الترحال في سبيل طلب العلم بتعرفه على الفقيه محمد السوسي السملالي الذي كان يدرس بمدينة القصر الكبير، فذهب معه إلى المدينة، وهناك تفرغ لدراسة العلم والعبادة، وفي عام 1767م انتقل إلى مدينة تطوان، فدرس بها جملة من الدواوين

الأصول والفقه بالطريقة تعليق وضبط محمود بيروتي دار البيروني سوريا دمشق الطبعة الأولى 2004، 1424هـ ص 26.

1 - هو الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم الخزار القواريري أصله من نهاوند ولد ونشأ في بغداد توفي سنة 298 هـ ، ينظر كتاب معراج التشوف إلى حقائق التصوف ، عبد الله أحمد بن عجيبة ، ص 26 .

2 . أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل لتصوف ضبط ونعليق أحمد شمس الدين ، لبنان بيروت دار الكتب العلمية ، الطبعة الاولى 1413، 1993هـ ، ص 19.

3. عبد الله أحمد بن عجيبة ، معراج التشوف إلى حقائق التصوف تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي ، الدار البيضاء المركز الثقافي المغربي ص 26.

4 . عبد القادر عيسى حقائق عن التصوف دار المقطم طبعة 2005 ص 08.

5- عبد الله أحمد بن عجيبة ، معراج التشوف إلى حقائق التصوف ، ص 26.

الحديثية والفقهية والأصولية واللغوية والعقدية¹.

تفرغ لذكر الله ورياضة نفسه، حتى شاءت الأقدار أن يتعرف على الشيخ العارف بالله محمد البوزيدي الحسني، فأخذ عنه أصول الطريقة الدرقاوية، ولازمه مدة كانت كافية ليسلك نهجه في الزهد والعبادة.

ولم تشغله حياة التدريس والعبادة عن التأليف والإبداع، فقد نيفت تصانيفه على ثلاثين عملاً علمياً، منها المطبوع، وأغلبها مخطوط، وبعضها مفقود، ومن أهم تأليفه:

تفسير القرآن العظيم وسماه: «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» وطبع كاملاً ببيروت، وشرح الحكم العطائية المسمى: «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» مطبوع

توفي رحمه الله في سابع شوال من عام 1224هـ الموافق 15 نونبر 1809م في دار شيخه الصوفي محمد البوزيدي الحسني بقرية بوسلامة، وبقي مدفوناً بالقرية مدة اختلف في تحديدها ما بين ثلاثة أيام، وأربعين يوماً، وثلاثة أشهر، إلى أن اغتنم مريدوه (الفقراء) فرصة فنشوا قبره، وقدموا بجثته إلى موطنه بقرية الرُميج من قبيلة أنجرة، وما زال ضريحه بها مقصوداً إلى اليوم، وقيل: قبره بمنطقة الدهادة في الطريق إلى مدينة القصر الصغير².

التعريف بالمولف :

الجلي للناظر في تفسير البحر المديد أنه توكأ على اقتناص المعاني من الظواهر ثم عدل إلى البواطن لأنها أبلغ في الإدراك على المنهج الذي وقته، وديدنه أن يقسم السورة إلى مقاطع ثم يقوم بتفسير كل مقطع حسب مايقنضيه الظاهر ويتبع ذلك بالتفسير الإشاري.

بواعث تأليفه:

جلّى ابن عجيبة رحمه الله الباعث الذي نهزه على تدوين هذا السفر بعد الإذن فيه احتكاماً إلى ماشاع عند القوم من أن أي أمر لا يقبلون عليه إلا بعد أن يرد فيه الإذن نجده يقول في مقدمته :

« ..فإن علم تفسير القرآن من أجل العلوم ، وأفضل ما ينفق فيه نتائج الأفكار وقرائح الفهوم ولكن لايتقدم لهذا الخطر الكبير إلا العالم النحرير ، الذي رسخت أقدامه في العلوم الظاهره عربية وتصريفا

1 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى سنة 1341هـ المطبوعة السلفية بمصر. ص 400.

2 - الزركلي، الأعلام، ، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط15، 1999م، ج1. ص 245.

، ولغة وبيانا وفقها وحديثا وتاريخا يكون أخذ ذلك من أفواه الرجال ثم غاص في علوم التصوف ذوقاً وحالا ومقالا ، بصحبة أهل الأذواق من أهل الكمال ، وإلا فسكوته عن هذا الأمر العظيم أسلم ، واشتغاله بما يقدر عليه من علم الشريعة الظاهرة أتم ، واعلم أن القرآن العظيم له ظاهر لأهل الظاهر وباطن لأهل الباطن ، وتفسير أهل الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن ، ولا يفهمه غيرهم ولا يذوقه سواهم ، ولا يصح ذكره إلا بعد تقدير الظاهر ثم يشير إلى علم الباطن بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة ، فمن لم يبلغ فهمه لذوق تلك الأسرار ، فليسلم ولا يبادر بالإنكار ، فإن علم الأذواق من وراء طور العقول ، ولا يدرك بتواتر النقول . قال في لطائف المنن : اعلم أن تفسير هذه الطائفة - يعني الصوفية - لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعاني الغربية ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له عليه في حرف اللسان وثم أفهام باطنه تفهم من الآية والحديث لمن فتح الله قلبه . وقد جاء أنه عليه السلام قال : لكل آية ظاهر وباطن ، وحد ومطلع - فلا يصدك عن تلقى المعاني الغربية منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لكلام الله لو قالوا لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لا يقولون ذلك ، بل يقولون الظواهر على ظواهرها ومراداتها وموضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم»¹

حاصل ما سيق:

- التقرير أن التفسير علم خطير لا يجب ولوجه إلا من قبل من أحاط بعلوم النقل وغاص في الذوقيات سلوكاً لا تنظيراً.
- الاحالة على السكوت في هذا الفن أسلم من الخوض فيه لغير المتضلع بعلوم الظاهر والباطن .
- حصر الفهم الباطني لمقاطع السور لأهل العرفان دون غيرهم والظاهري حظه من ذلك الوقوف والتسليم المطلق .
- بيان أن الحكم المتغية من بواطن النصوص هي عين ما أطلع الله عليه كثيرا من عباده أهل حضرة وخصته.

1 - أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي ترسلان، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة الطبعة 1: 1419هـ، ص 8.

المنهج العام لفلسفة ابن عجيبة في تفسيره :

- 1- أخذه عن أكابر أهل التصوف: أكثر ابن عجيبة رحمه الله من النقل عن أساطين التصوف مثل أبي العباس المرسي والقشيري وأبي الحسن النوري وابن الفارض والحلاج وأبي يزيد البسطامي وشيخ المشايخ القطب الجيلاني وأبي الحسن الشاذلي ومحي الدين ابن عربي والجنيد وغيرهم .
 - 2- بيان أسماء السور وبيان المقاصد الجلية والخفية: تجلّى ذلك في حديثه عن سورة الفاتحة وأسمائها وعدد الآيات وذكر الخلاف بين المالكية والشافعية¹.
 - 3- ذكر المناسبات بين السور والمقاطع: لعل ذلك مما يبرز اعتناؤه بما خفي عن أهل الظاهر فقد اطرّد لديه ذكر المناسبات الذوقية بين المقاطع على وجه يفضي به إلى استخلاص قاعدة من قواعد الأدب أو التزكية، فنجد في قوله: « وما أراد الله تعالى أن يتكلم على الحج قدم الكلام على الأحوال لأنها سبب في وجوبه والوصول إليه »²، وقال : وما أراد الحق تعالى أن يتكلم عن أحكام الحج قدم الكلام على الهلال لأنه معتبر في الحج أداء وقضاء³.
 - 4- فلسفة الوجود وحقيقة الذات الإلهية : تأثر ابن عجيبة بسابقه من أهل التصوف في حديثهم عن الذات الإلهية وعن حقيقة الرب والعبد وتجلّى ذلك في سورة الفاتحة حال حديثه عن قوله تعالى: ﴿ رب العالمين ﴾ قال : « لا عبرة بظواهر الأشياء وإنما العبرة بالسر المكنون وليس ذلك إلا بظهور الحق وارتفاع عطاياه ، وزوال أستاره وخفائاه ، فإذا تحقق ذلك التجلى والظهور ، استولى على الأشياء الفناء والدثور ، وانقشعت الظلمات بإشراق النور ، فهناك يبدو عين اليقين ، ويحق الحق المبين ، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين ، كما يفهم العامة بطلان ذلك يوم الدين ، حين يكون الملك لله رب العالمين . وليت شعري أي وقت كان الملك لسواه حتى يقع التقييد « الملك يومئذ لله »⁴ وقوله : « والأمر يومئذ لله »⁵ لولا الدعاوي العريضة من القلوب المريضة⁶.
- يقرر ابن عجيبة ما أكده أهل الأذواق : من لوازم شدة الظهور الخفاء ، وكونك لا تراه لشدة قربه منك

1 - ابن عجيبة- التفسير المديد، ص 20.

2 - المصدر نفسه ، ص 154.

3 - المصدر نفسه ، ص 155.

4 - سورة الحج الآية 56.

5 - سورة الانفطار الآية 19.

6 - المصدر السابق، ص 10.

و يعطف تلك المعاني ويؤكد لها في تفسير قوله تعالى: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ يقول: الطريق المستقيم الذي أمرنا الحق بطلبه ، هو طريق الوصول إلى الحضرة ، التي هي العلم بالله على نعت الشهود والعيان ، وهو مقام التوحيد الخاص الذي هو أعلى درجات في التوحيد ، وليس فوقه إلا مقام توحيد الأنبياء والرسل ، ولابد فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريقة السير ، قد سلك المقامات تذوقا وكشفا ، وجاز مقام الفناء والبقاء ، وجمع بين الجذب والسلوك ، لأن الطريق عويص ، قليل خطره ، كثير قطاعه ، وشيطان هذه الطريق فقيه بمقاماته ونوازله ، فلا بد فيه من دليل وإلا ضل سالكه عن سواء السبيل¹.

5- توسمات في الحروف المقطعة: تابع ابن عجيبة اهل التصوف في أن الحروف المقطعة لها دلالات وأمارات عجز أهل الظاهر عن فك رقومها، ولم يجزم أحد من القوم أنها عين مقصود الشرع بل أكد أنها محض توسمات ظنية ساقطتها مناسبات ذوقية .

قال في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ ﴾ ثم افتتح السورة برموز رمز بها بينه وبين حبيبه فقال : « الم » وقد حارت العقول في رموز الحكماء ، فكيف بالأنبياء ؟ فكيف بالمرسلين ؟ فكيف بسيد المرسلين ؟ فكيف يطمع أحد في إدراك حقائق رموز رب العالمين ؟ قال الصديق رضي الله عنه: في كل كتاب سر وسر القرآن فواتح السور « فمعرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء ، وكل واحد يلمع له على قدر صفاء شربه² . وساق بيان مجمل لتلك الحروف:

قال : قلت : والأظهر أنه حروف تشير للعوالم الثلاثة : فالألف لوحدة الذات في عالم الجبروت ، واللام لظهور أسرارها في عالم الملكوت ، والميم لسريان أمدادها في عالم الرحموت ، والصاد لظهور تصرفها في عالم الملك وكل حرف من هذه الرموز يدل على ظهور أثر تصرف الذات في عالم الشهادة فالألف يشير إلى سريان الوحدة في مظاهر الكون ، واللام يشير إلى فيضان أنوار الملكوت من بحر الجبروت ، والميم يشير والميم يشير إلى تصرف الملك في عالم الملك³.

قال جعفر الصادق : لقد تجلى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكن لا يشعرون . وقال أيضا وقد سأله عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه ، فلما سرى عنه قيل له في ذلك فقال : ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته اه فدرجات القراءة

1 - ابن عجيبة- التفسير المديد، ص 17.

2 - المصدر نفسه، ص 10.

3 - المصدر ذاته، ص 17.

ثلاث : أدناها : أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفا بين يديه ، وهو ناظر له ومستمتع منه فيكون حاله السؤال والتملق والتضرع والابتهاال ، والثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه ، ويناجيه بإنعامه وإحسانه ، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم ، والثالثة : أن يرى في كلام المتكلم ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ، بل يكون فانيا عن نفسه ، غائبا في شهود ربه ، لم يبق له عن نفسه إخبار ، ولا مع الله غير قرار . فالأولى لأهل الفناء في الأفعال ، والثانية في أهل الفناء في الصفات ، والثالثة لأهل الفناء في الذات ، رضي الله تعالى عنهم ، وحشرنا على مناجيهم ، آمين¹.

6- التنزيه عند ابن عجيبة: نقل لنا قول أبي الحسن النوري : ماهذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة ؟ فقال : عز ظاهر، وملك قاهر ، ومخلوقات ظاهرة به ، وصادرة عنه ، لا هي متصلة به ، ولا منفصلة عنه ، فرغ من الأشياء ولم تفرغ منه ، لأنها تحتاج إليه وهو لا يحتاج إليها كيف تنكرون ظهور نور الحق في الأكوان وتبعدون عن حضرة الشهود والعيان ، وقد كنتم أمواتا بالغفلة وغم الحجاب ، فأحياكم باليقظة والإياب ، ثم يميّتكم بالفناء عن شهود ماسواه ، ثم يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره بالله ، ثم إليه ترجعون في كل شيء ، لشهود نوره في كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وعند كل شيء ، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان².

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾³ ويقول : اعلم أن الروح القائمة بهذا الآدمي ، هي قطعة من الروح الأعظم ، التي هي المعاني القائمة بالأواني ، وهي آدم الأكبر والأب الأقدم ، ويقول : وقال بعض العارفين : الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض لأنه للطفه سار في كل شيء ، ولنورانيته ظاهر في كل شيء ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف غير متقيد بذلك فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده فهو أعمى البصيرة ، محروم من مشاهدة الحق تعالى ، وهذه الإشارات لا يفهمها إلا أهل الأذواق من أهل المعاني تذوق أسرارهم وتفهم إشاراتهم وإلا فحسبك أن تعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه وتمسك بقوله تعالى : «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» وسلم للرجال في كل حال⁴.

7- الاستثناس بالكتب السابقة: وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى يا عبدي إنما منحتك صفاتي لتعرفني بها فإن أدعيتها لنفسك سلبتك الولاية ولم أسلبك صفاتي ، يا عبدي أنت صفتي وأنا

1 - ابن عجيبة، البحر المديد ، ص 20-21-22.

2 - المصدر نفسه، ص 23.

3 - سورة الشورى، الآية 11.

4 - المصدر السابق ص 28.

صفتك فارجع إلي أرجع إليك ، يا عبدي فيك للعلوم باب مفتاحه أنا ، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت فاقصد أي البابين شئت ... الخ

8- مقامات التوحيد عند ابن عجيبة: أوردتها حال تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾¹، واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على قدرته درجات ، الأولى توحيد العامة وهو الذي يعصم النفس والمال وينجو به من الخلود في النار وهو نفي الشركاء والأنداد والصاحبة والأولاد والأشباه والأضداد ، الثانية توحيد الخاصة وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال فإن ذلك حاصل لكل مؤمن وإنما مقام الخاصة يقين في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل وثمره هذا العلم الانقطاع إلى الله والتوكل عليه وحده فلا يرجو إلا الله ولا يخاف أحدا سواه إذ ليس يرى فاعلا إلا الله فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب الدرجة الثالثة ألا يرى في الوجود إلا الله ولا يشهد معه سواه ، فيغيب عن النظر إلى الأكوان في شهود المكون وهذا هو مقام الفناء فإن رد إلى شهود الأثر بالله سمي مقام البقاء².

9- معاني الخلافة في الأرض والحكم بين الناس فيها : قال تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾³ أي يخلفني في أرضي وتنفيذ أحكامي⁴ . وقوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾⁵ قال : ثم إن العلماء بأحكام الله ، إذا لم يحصل لهم الكشف عن ذات الله يكونون حجة على العامة يشهدون على الناس ، والأولياء يشهدون على العلماء فيزكون من يستحق التزكية ، ويردون من لا يستحقها لأن العارفين بالله عاملون بمقامات العلماء أهل الظاهر . لا يخفي عليهم شيء من أحوالهم ومقاماتهم بخلاف العلماء لا يعرفون مقامات الأولياء ولا يشمون لها رائحة كما قال القائل : تركنا البحور الزاخرات وراءنا فمن أين يدري الناس أين توجهنا⁶.

وفي قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾⁷ قال : وقد كتب على اليهود القصاص وحده وعلى النصارى العفو مطلقا وخيركم أيها الأمة المحمدية بين أخذ الدية والقصاص فمن اعتدى بعد أخذ الدية وقتل فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة في الدنيا بأن يقتل لا محالة لقوله صلى الله عليه وسلم: لا أعافي أحدا قتل بعد أخذ الدية⁸.

1 - سورة البقرة الآية 121.

2 - ابن عجيبة- البحر المديد، ص 163.

3 - سورة البقرة- الآية 30.

4 - المصدر السابق ص 40.

5 - سورة البقرة- الآية 143.

6 - ابن عجيبة- البحر المديد، ص 116.

7 - سورة البقرة - الآية 178.

8 - المصدر نفسه ص 19 - 32 - 59 - 120 - 152.

10- الأخذ بالإسرائيليات والخطاب بما خفي : ما نقله تحت قوله ﴿العالمين﴾ عن الفخر الرازي قال : روي أن بني آدم عشر الجن، وبني آدم والجن عشر حيوانات البر ، وهؤلاء كلهم عشر الطيور وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين ببني آدم ، وهؤلاء عشر ملائكة السماء الدنيا ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الثانية ، ثم على هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة ، ثم الكل في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل ، ثم هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد في سرادقات العرش التي عددها مائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه كذلك إذا قبلت السماوات والأرض وما فيها وما بينها يكون شيئاً يسيراً ونزراً قليلاً ، وما من موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راکع أو قائم وله زجل بالتسبيح والتهليل ، ثم هؤلاء في مقابلة الذين يحولون حول العرش كالقطرة من البحر ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى¹.

11- لغة الاشارات والرمزية: تجلى ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾² فإن قلت : إذا كان العبد ذاهباً على هذا المنهاج المستقيم ، فكيف يطلب ما هو حاصل ؟ فالجواب : أنه طلب التثبت على ما هو حاصل ، والإرشاد إلى ما هو ليس بحاصل ، فأهل مقام الإسلام الذي هو حاصل ، يطالبون الترقى إلى مقام الإيمان الذي ليس بحاصل ، على طريق الصوفية الذين يخصون العمل الظاهر بمقام الإسلام ، والعمل الباطن بمقام الإيمان ، وأهل الإيمان يطلبون الثبات على الإيمان الذي هو حاصل ، والترقى إلى مقام الإحسان الذي ليس بحاصل ، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان والترقى إلى مالا نهاية له من كشوفات العرفان ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾³.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ بالتثبت فيما هو حاصل والإرشاد بما ليس بحاصل . ثم قال : عموم المؤمنين يقولون اهدنا الصراط المستقيم أي بالتثبت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنه حصل لهم التوحيد ، وفاتهم درجات الصالحين والصالحون يقولون : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ معناه نسألك التثبت فيما هو حاصل ، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء . والشهداء يقولون : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بالتثبت فيما هو حاصل ، والإرشاد ما ليس بحاصل ، فإنهم حصلت لهم الشهادة ، وفاتهم درجات الصديقين . والصديقون يقولون : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بالتثبت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم درجات الصديقين ، وفاتهم درجات القطب . والقطب يقول ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ بالتثبت فيما هو حاصل ، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل ، فإنه حصل له

1 - ابن عجيبة - البحر المديد ص 9.

2 - الفاتحة الآية 6 .

3 - سورة يوسف الآية 76.

رتبة القطبانية وفاته علم ما إذا شاء الله أن يطلعه عليه¹.

12- قواعد التفسير في نظر ابن عجيبة: اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عقاب توجه لمن ترك طريق الإيمان وأنكر على أهله ، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان وأنكر على أهله وكل وعيد توعد به أهل الكفر حسي بدني ، وعذاب أهل الحجاب معنوي قلبي ، فنقول فيمن رضي بعيبه ، وأقام على مرض قلبه ، وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ وهو كفرهم بما أنزل الله من الخصوصية على قلوب أوليائه بغيا وحسدا ، أو جهلا وسوء ظن أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباؤوا بغضب الحجاب على غضب البعد والارتياح ، أو بغضب سقم القلوب ، على غضب الإصرار على المساوئ والعيوب من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر كما قال الشاذلي ولا يصح يتغلغل فيه إلا بصحبة أهله وللکافرين بالخصوصية عذاب الطمع وسجن الأكوان وهما شجرتا الذل والهوان ، وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله من أسرار الحقيقة وأنوار الطريقة ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا من ظواهر الشريعة ، ويكفرون بما وراءه من أسرار ككشف أسرار الذات ، وأنوار الصفات².

خاتمة :

تجلى مما سبق جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- أن ابن عجيبة من كبار أهل التصوف الذين زاوجوا بين الظواهر ولم يعولوا عليها كثيرا بل وعَنَّفُوا المعتكف على تحصيلها ووسموه بالظاهري، وجعل من تجليات الباري على أهل التحقيق أن مكَّنتهم من الغوص في بواطن النصوص وجلب ما كمن بها من درر .
- العدول عن ظواهر النصوص إلى البواطن لا يكون إلا إذا شهد شاهد بالاعتبار للعدول، وفي التوسمات التي أورد ابن عجيبة التزام بطوابط التفسير الاشاري .
- اللغة الفلسفية التي استعمل ابن عجيبة ورثها عن أسلافه كقوله : الناسوت، الملكوت الرحموت وغيرها، وفي ذلك تجلية للمصادر التي استقى منها تفسيره .
- تجلى تأثيره بمحي الدين بن عربي الفيلسوف وتكأة الصوفية في الكلام والعبارات .
- كثرة غزارة الاشارات واللغة الرمزية التي اضفت رونقا على التعابير التي اورد، ولغة المتصوفة عموما تمتاز بالعمق والغزارة .
- خلَّف ثروة علمية هائلة ويعد هذا السفر - البحر المديد- من ذخائر التفاسير التي عنت بالظواهر والبواطن.

1- المصدر السابق ص 18.

2- ابن عجيبة - البحر المديد ص 78.

فهرس المصادر والمراجع:

- ✓ أحمد بن أحمد البرنسي المغربي المشهور بزروق ، قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة و الحقيقة ويصل الأصول و الفقه بالطريقة تعليق وضبط محمود بيروتي دار البيروني سوريا دمشق الطبعة الأولى 2004، 1424 هـ ..
- ✓ أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي ترسلان، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة الطبعة 1: 1419هـ.
- ✓ أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل لتصوف ضبط وتعليق أحمد شمس الدين ،لبنان بيروت دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى 1413، 1993هـ.
- ✓ حسن الشرقاوي معجم ألفاظ الصوفية مؤسسة مختار للنشر و التوزيع القاهرة الطبعة الأولى 1987.
- ✓ الزركلي، الأعلام، ، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط15، 1999م.
- ✓ الشاطبي، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان ط1(1417هـ)/ 1997م) ج1، ص 347.
- ✓ الطوسي السراج، اللمع، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م، ص 43، 44.
- ✓ عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف دار المقطم طبعة 2005 .
- ✓ عبد الله أحمد بن عجيبة ، معراج التشوف إلى حقائق التصوف تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي ، الدار البيضاء المركز الثقافي المغربي.
- ✓ محمد بن بريكة، موسوعة الطرق الصوفية الإيضاح والبيان لمصطلح أهل العرفان ،المعجم الصغير دار الحكمة الجزائر 2007
- ✓ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى سنة 1341هـ المطبعة السلفية بمصر.